الهجرة غير الشرعية في الجزائر

دراسة سوسيو-أنثروبولوجية

الدكتور ساسي سفيان*

الملخص

إن دراسة ظاهرة الهجرة غير الشرعية في الجزائر قادتنا إلى البحث في أهم الإستراتيجيات الشبابية المتبعة من أجل الهجرة غير الشرعية بوجوهه المختلفة، قصد الوقوف على أسبابها ودوافعها والظروف التي تظهر فيها، وكشفا على طبيعة العلاقة بين الثلاثية الشباب والمجتمع والهجرة غير الشرعية، معتمدين في ذلك على بحث ميداني تم في مدينة عنابة وفق مقاربة سوسيو-انثروبولوجية، وحصرنا هذه الاستراتيجيات في ثلاث ظواهر أساسية هي: الزواج، الطرق الفردية و الإقامة غير المشروعة.

الكلمات المفتاحية : الهجرة غير الشرعية، الشباب، البطالة، التهميش، الزواج.

Abstract

The study of the phenomenon of illegal immigration in Algeria led us to research on the most important youth strategies for different forms of illegal migration, In order to identify the causes and motives and circumstances in which they appear, and the nature of the relationship between the tripartite: youth, society and illegal migration, Based on a field study conducted in Annaba according to a socio-anthropology approach. We limited these strategies to three main phenomena: marriage, individual methods and illegal residence.

Keywords: illegal immigration, youth, unemployment, marginalization, marriage.

*أستاذ محاضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف، الجزائر.

مقدمة

إذا كانت الهجرة غير الشرعية تمثل اجتياز الأفراد للحدود سرا أو الإقامة غير القانونية في دولة ما بدون وثائق تسمح بذلك، فإنها قد تحولت منذ بداية التسعينات وبشكل تدريجي إلى عمل منظم تشرف عليه شبكات وتنظيمات مختلفة وتعمد في نطاق عملها إلى التحايل على القانون واختراقه بأقل الخسائر الممكنة.

والشباب المهاجر يعمد إلى إتباع كافة الطرق الكفيلة بنقلهم إلى دول المهجر وغالباً ما يكون ذلك عبر شبكات إجرامية دولية أو عبر وسائل نقل وأساليب تشوبها خطورة كبيرة على حياة المهاجرين مما يؤدي إلى الوفاة في مرات عدة.

إن الوضع العام المتدني في البلدان النامية قد دفع بساكنيها إلى البحث عن مجالات جديدة للعمل والعيش، تختلف عن مجالاتهم، وقد وجدوا مبتغاهم في البلدان المتقدمة بما أن بلدانهم لم تستطع استيعابهم أو تحفيزهم، فقاموا بكل ما بوسعهم من أجل الهجرة.

مشكلة الدراسة

نجد أن مفهوم الهجرة غير الشرعية يتشارك مع العديد من المصطلحات أو يتشابه معها في التعريف أو الدلالة مثل: حرقة، هجرة سرية غير قانونية لا مرئية،[1] تفحيطة، هربة، وغيرها من المصطلحات، إلا أننا سنتبنى المفهوم الأول -الذي سبق ذكره- للدلالة على عملية تنقل الفرد أو المجموعات من البلد الأصلي إلى دولة أجنبية بغية العمل، التجنس أو الإقامة بطريقة غير شرعية أو لأسباب أخرى عدة، فلقد أصبحت هذه الظاهرة - في السنوات الأخيرة- تمس فئة الشباب أكثر من الفئات الأخرى، نظرا للتغيرات السوسيو-اقتصادية والسوسيو- ثقافية في الجزائر، والتي مست المجتمع، لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة السوسيو-انثروبولوجية الإجابة على الأسئلة الآتية: ما هي الدوافع المؤدية إلى الهجرة غير الشرعية في الجزائر؟ وما هي المقاربة النظرية التي يمكننا تبنيها في تفسير هذا السلوك؟ وما هي الظروف الخاصة بالشاب والتي تنشأ فيها هذا النوع من الهجرة؟ وما الهدف منها؟

أولا: الإنسان والهجرة

حركة الإنسان عبر المكان من الظواهر الأساسية الملازمة للظاهرة البشرية منذ عهود مديدة، وهي شاغلة طبيعية لازمت الإنسان بحثا عن الأفضل، "حتى مع توفر عوامل الاستقرار، وتزداد أهميتها مع ظهور ملامح التباين في الخيرات والثروات"[2]، من المؤكد أن التضاريس الوعرة والجغرافيا المجهولة وحتى المسافات الطويلة التي تفصل الإنسان عن موطنه الأصلي لم تعطل طموحه في دروب الحياة لطلب المزيد والبحث عن الأفضل، فشق طريقه في التنقل والترحال عابثا بالعوائق، هازئا بالمستحيل، وربما الظروف في القديم قد ساعدته إلى حد بعيد، ذلك أن المجتمعات الإنسانية بقيت لفترة طويلة تعيش حالة عدم تنظيم اجتماعي، أين يصعب معه تحديد الموطن الأصلي للأفراد لأن الأرض كانت فضاء عاما ومشاعا للجميع (بالمفهوم الماركسي)، مما سمح باستيعاب وتقبل كل الوافدين دون شروط تذكر.

هكذا كان افتقار المجتمعات القديمة لتنظيمات الدولة الحديثة، التي أرست على المهاجر إملاءات، شروط إدارية وتعقيدات تنظيمية تضبط مسألة التنقل، والترحال والإقامة.

إن تتبع الميراث المعرفي في الموضوع واستقراء التاريخ يكشف أن الإنسان عرف الهجرة والتهجير لأسباب مختلفة، كان أهمها: الكوارث الطبيعية، مثل: الجفاف والزلازل، والعوامل البيئية مثل: تخصيب الأرض وانتظار المحصول، البحث عن الماء والمناخ المناسب للعيش وتربية الأنعام، بالإضافة إلى عوامل اجذب والطرد مثل: الحروب، الغزوات، القرصنة، التجارة وغيرها من العوامل التي ساهمت باستمرار في حركية الإنسان وهوامه في حدود جغرافيا الطبيعة، التي تقسو أحيانا وتبسط أحيانا أخرى.

منذ العصور القديمة دلنا الدرس التاريخي "كيف أن الحروب والغزوات لعبت دورا في إيجاد ظاهرة التهجير القسري- الاضطراري، الذي دفع بجماعات كاملة للنزوح بحثا عن الأمان والاستقرار.

وفي العصر الإقطاعي الأوربي، يتبين لنا كيف أن البنية القروسطية (la société médiévale) قد تغلغلت في طبقة الفقراء وأشباه العبيد فكانوا يعملون في التجارة أو الحرف في بيئة مستقرة حيث لم يفكروا في الهجرة، التنقل أو الفرار، إلا إذا باعهم الأسياد في سوق العبيد"[3]، أما الهجرات التوسعية التي اقترنت بالرأسمالية وآلياتها الاستيطانية فقد حققت تدميرا شاملا لحضارات عتيدة، طرد واستبعاد شعبها، أين تكرس سيطرة المهاجرين الأوروبيين على كافة النظم التقليدية وجلب العبيد من إفريقيا كعمالة رخيصة بلا ضمانات للعمل في مزارع البيض، ومشكلة التمييز العنصري بين البيض والهنود الحمر التي فرضت طرد الهنود من أراضي في العالم الجديد (أمريكا) وتدوير ممتلكاتهم لصالح الإنسان الأبيض.

في العصر الحديث، فإن الأمر اختلف كثيرا، ومع تشكل الدولة الحديثة، التي باتت تفرض وصاية سياسية، اقتصادية واجتماعية على حدودها وسكانها، باتت لعمليات الهجرة والانتقال عبر المكان(الدول والأماكن) شروط إدارية وتنظيمية أكثر تعقيدا يتولى أمرها المعنيون بإدارة الدولة، تبعا لما يقدرونه من مصالح تعود بالنفع العام على مجمل الدولة أو الضرر، فتأتي التشريعات الناظمة للهجرة يسيرة وأحيانا عسيرة تبعا لمصلحة الدولة ومصلحة أبنائها وفق تقديرات المعنيين بإدارتها.[4]

وحديثا أطلق مدير عام منظمة الهجرة الدولية على القرن الحادي والعشرين، اسم قرن الهجرة فالعولمة جعلت الهجرة أسهل بالنسبة للأعداد المتزايدة من البشر الساعين للوصول إلى ظروف معيشية أفضل لهم ولعائلاتهم ومستوى اجتماعي واقتصادي أعلى في العمل، الصحة والتعليم، وقد أسهمت ثورة المواصلات والاتصالات في تسهيل حصول الأفراد على فرص عمل في البلدان الجديدة، وتقدر منظمة الهجرة الدولية عدد المهاجرين الشرعيين بأكثر من 200 مليون شخص، بينما لا يمكن حصر عدد المهاجرين غير الشرعيين[5]، كما أكد الأمين العام للأمم المتحدة موقف المنظمة الأممية من مسألة الهجرة في العديد من المحافل الدولية، على أنها واحدة من أكبر التحديات التي سيواجهها الإتحاد الأوربي في السنوات المقبلة، على الرغم من مساهمة الأوربيين في ازدياد موجات الهجرة لحاجاتها إلى المهاجرين ولرفع عدد السكان بها، نظرا لزيادة الأعمار في أوربا مع قلة عدد الإنجاب ومن ثم فهي مهددة بانخفاض عدد السكان بها وانتشار الشيخوخة، كما أكد الأمين العام أن الهجرة غير الشرعية جزءا من إستراتيجية أوسع نطاقا، وأقر أن البلدان يجب أن توفر قنوات للهجرة الشرعية وأن تسعى للاستفادة منها مع تأمين حقوق الإنسان للمهاجرين، وأيضا تستطيع البلدان الفقيرة أن تستفيد من الهجرة من خلال تحويلات المهاجرين التي تساعد في عمليات التنمية بها، ومن ثم فكل البلدان لها مصلحة في الهجرة وهو ما يتطلب المزيد من التعاون الدولي، وعلى اللجنة العالمية للهجرة الدولية أن تساعد في وضع قواعد دولية ورسم سياسات أفضل لإدارة الهجرة بالشكل الذي يكفل مصالح الجميع"[6].

ثانيا. المداخل النظرية المفسرة للهجرة غير الشرعية

إن الاهتمام الأكاديمي بموضوع الهجرة غير الشرعية امتد إلى العديد من العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية مما جعل وضع تفسير لها أمرا حتميا، في محاولة لوضع تفسير علمي لهذه الظاهرة التي امتدت لتصبح ميزة القرن الحادي والعشرين في ظل اتساع رقعة الحروب والنزاعات الدولية.

1. نظرية خصائص المركز الاجتماعي

تعتبر نظرية خصائص المركز الاجتماعي من النظريات المفسرة لسلوك الهجرة غير الشرعية التي تعتمد على التراكم التنظيمي لعدد من المفكرين والمنظرين أمثال: توماس (1939)، جونسون (1952)، فيليب وجورج (1954)، سكودر وأندرسن (1954)، هاميلتون (1959)، ستوب(1962)، سيروك، فين و سوفال (1965).[7]

حيث يرى هؤلاء المنظرين أن المركز الطبقي والمكانة الاجتماعية التي يحتلها الشاب في بيئته الاجتماعية المحلية (الأسرة، العائلة والمجتمع المحلي) دورا أساسيا في استثارة سلوك الهجرة غير الشرعية لديه من عدمها، ويشير في هذا السياق عبد الله عبد الغني " ذلك أن السلوك الهجري أو الميل نحو الهجرة يختلف اختلافا واضحا على أساس المركز الطبقي".[8]

يشير توماس أن السن يعتبر أكثر خصائص المركز الاجتماعي تأثيرا في تحديد الميل إلى الهجرة، حيث أن الشباب أكثر الفئات العمرية طلبا للمراكز الاجتماعية الممتازة، وبالتالي سيكونون أكثر الفئات العمرية نزعة إلى الهجرة[9]، في حين يعتبر هاملتون أن الحالة التعليمية أكثر خصائص المركز الاجتماعي تأثيرا على الفعل المهاجر، حيث أن مستويات الهجرة تختلف حسب الفئات التعليمية.[10]

ويوضح ستوب بأن المسافة نحو الهجرة تتناقص بتأثير المركز الوظيفي والمهني، أي أن الهجرة تصبح غير هامة على الإطلاق للذين يشغلون مهنا تخصصية ماهرة، فيما تصبح مهمة للذين يشغلون مهنا متواضعة لا تحقق الطموحات الذاتية للأفراد، غير أنها تصبح في غاية الأهمية للذين لا يمارسون أي مهنة محددة.

إذن وحسب نظرية خصائص المركز الاجتماعي، يمكن تفسير سلوك الهجرة غير الشرعية، حجمها، مستوياتها، دوافعها واتجاهاتها من خلال المكانة المجتمعية للشاب سواء أكانت مكانة مهنية (وظيفية) تعليمية أو عمرية.

2. نظرية الشبكات أو دوام الهجرة

إن البعد المتعلق بشبكات الهجرة مهم للغاية لأنه يفسر استمرار ظاهرة الهجرة عن طريق إقامة الروابط الاجتماعية بين المهاجرين وغير المهاجرين، تلك الروابط التي تجمع بين دول المنشأ ودول المقصد، ففي الواقع يقدم كل مهاجر فرصا للأشخاص من محيطه أفرادا من عائلته، عشيرته أو حتى جيرانه، لحثهم ومساعدتهم على الهجرة.

وفي هذا السياق فإن قرار الهجرة لا يقوم بشكل أساسي على حساب اقتصادي وعقلاني بحت،[11] على النحو الذي تدعو إليه النظرية النيوكلاسيكية ولكن على المعلومات التي تم جمعها عن مدى توفر الأشخاص الذين يستطيعون دعم المهاجر ماديا ونفسيا خلال جميع مراحل انتقاله، كما أن شبكات الهجرة التي تسمح من خلال تأثيراتها في تقليل المخاطر والتكاليف عن المهاجرين المستقبلين بالاستمرار الذاتي لعملية الهجرة، أيضا تعمل هذه الشبكات كهيئة مقدمة لخدمات كما تعمل على التقليل من تكلفة الهجرة ويكون ذلك بالأخذ في الاعتبار بوجود مخزون من تعداد المهاجرين المشتتين في عدة مدن وبلدان والذي هو أحد المعايير الهامة التي تتدخل في قرار الهجرة، وهكذا كلما كانت شبكة الهجرة متطورة كلما انخفضت التكاليف وزادت الهجرة حجما ويمثل الرأسمال الاجتماعي للمهاجر دورا أكثر أهمية من الرأسمال النقدي.

تظل المؤسسة الأسرية جوهرية في التحفيز على الهجرة وتنمية قدرات المهاجر، وقد أوضحت ذلك سارة هاربيزون (Sarah harbison) في أن تعقد البنى العائلية التي تميز عملية الهجرة كون الأسرة الوسيط بين الفرد والمجتمع، وحددت ثلاثة عوامل أساسية تعطي للوحدة الأسرية أهمية كبيرة في عملية الهجرة، وهي:

- الأسرة هي الداعم الأساسي للمهاجر، فهي التي تدبر الموارد من أجل السفر والإقامة في البلد المستقبل وخاصة عندما ندرك تعداد المهاجرين الشباب الذين لا يملكون وسائل مادية كافية وكيفيات انتقالهم إلى الخارج.

- تمتلك الأسرة شبكتها الاقتصادية والاجتماعية في بلد المهجر ما يوصف بصلة القرابة أو النسب، فينتقل الأشخاص حيث توجد لديهم عائلات تستطيع مساعدتهم وتتحمل مسؤوليتهم في حالة المشقة وتبحث

لهم عن عمل وتساندهم نفسيا في حالة الضيق أو في حالة صدام الثقافات وتتوطد الروابط بين أفراد العائلة الكبيرة لتوجد تضامنا متعدد القوميات والذي يجعل من المهاجر ممثلا فعالا في تنمية البلد الأم.

- الأسرة هي نقطة التجمع الرئيسية وهي في هذا السياق توجه الفرد وتعمل على تطويره وحمايته في بلد المهجر.

3. نظرية الطرد والجذب

تعد من أبرز النظريات المفسرة للهجرة، وقد حددت الأسباب الأساسية للهجرة في عاملين هما: 1/ الاتصال 2/ تعدد العلاقات القائمة بين البلدان المرسلة والمستقبلة للمهاجرين، وقد اعتبر دونالد بوج (donald Bogue) أن سمتي الطرد والجذب التي تتميز بهما البلدان الأصلية للمهاجرين أو البلدان التي يهاجر إليها الأفراد متغيرات تساعد في اختيار جماعات معينة لكي تهاجر من مكان آخر.

ويمكن إجمال قوانين النظرية على النحو الآتي:[12]

- إن هنالك مراحل متلاحقة في عملية الهجرة تبدأ بالانتقال ثم الاستقرار بالمكان الجديد، وتزيد في المراحل الأولى نسبة الرجال المهاجرين على النساء، وتعتمد الهجرة على متوسطي العمر من البالغين وغير المتزوجين،
- يكون عامل الجذب قويا في منطقة الوصول،
- تفقد الدول المهاجر منها متعلميها، وتجتذبهم الدول ذات النمو الاقتصادي والصناعي المهاجر إليها،
- إذا زاد تيار الهجرة في اتجاه واحد فإن عملية الاختيار تزداد أيضا.

وتتمثل عوامل الطرد البسيطة في الفقر، الاضطهاد والعزلة الاجتماعية، أما عوامل الطرد القوية فتتجلى في المجاعات، الحروب والكوارث الطبيعية، كما يمكن أن تكون عوامل الطرد عوامل بنائية ، مثل: النمو السكاني السريع وأثره على الغذاء والموارد الأخرى، والعامل السكاني يكون أكثر وضوحا في الدول الفقيرة، التي تناضل فعلا في مواجهة مشكلات غذاء كبرى ويتمثل العامل البنائي الآخر في الهوة المرتبطة بالرفاهية بين الشمال والجنوب أو الحرب كعامل من عوامل الطرد بين الأمم أو داخلها، أما عوامل الجذب فتتمثل في الزيادة المضطردة في البحث عن العمالة في بعض القطاعات والمهن فأسواق العمل تستورد مهاجرين في ظل عدم قدرة العرض فيها على تلبية الطلب على نوعية معينة من العمال، وهناك أيضا عوامل الشيخوخة التي تزحف على الدول الصناعية بالذات في أوربا الغربية، ما يؤدي إلى انكماش قوة العمل.

ثالثا. الهجرة غير الشرعية في الجزائر

تأخذ الهجرة غير الشرعية في الجزائر طرقا مختلفة وتعتمد أساليب تنظيمية متعددة، أغلبها تنظيمات موازية وغير محروسة خاصة وأنها مهددة كل يوم بأخطار رجال الأمن في الدول المصدرة لها وفي الدول التي تستقبلها على حد سواء، وبالنظر إلى أن العوامل المنتجة لها مستمرة وقائمة، فمن الطبيعي أن تتكيف مع البيئة المحيطة بها وتعمل على إيجاد طرق وأساليب تمكنها من الاستمرار، ويمكن التمييز بين ثلاثة طرق في هذا المجال، هي الطرق التقليدية التي تنظمها جماعات التهريب المنظمة وهي الأكثر قوة وانتشارا والطرق الاجتماعية التي تعتمد الزواج من أجنبيات وأخيرا الطرق الفردية وهي أقل انتشارا ولها وسائلها المختلفة أيضا.

1. الزواج

ظهرت عملية الإقبال على الزواج من أجنبيات، بهدف الحصول على الإقامة المشروعة، في الدول الأوربية عندما بدأت المفاوضات بين دول الإتحاد الأوربي ودول أوروبا الشرقية لانضمام الأخيرة إليه، نشطت بين الشباب المصريين محاولات الهجرة غير المشروعة إلى دول أوربا الشرقية بهدف الزواج من مواطنات هذه الدول، واكتساب الشرعية القانونية التي تتيح لهم الاندماج في المجتمع الأوربي، بعد أن

تنظم إليه الدول المشار إليها ويصبح من ثم في مقدورهم التنقل بحرية بين الدول الأوربية والتمتع بجنسية هذه الدول فيما بعد".[13]

أ – الزواج بالأجانب : لم يبقى الجنس في حدود التعبير عن الذات والتعويض مثلما يرى الباحث عبد الصمد الديالمي، بل أصبح الجنس[14] لدى الشباب وسيلة للاندماج الاجتماعي، أو بالأحرى هو وسيلة للهجرة وترك بلدانهم ومناطقهم التي قاسوا فيها الحرمان، التهميش والإقصاء نحو أوروبا "الجنة" كما يسميها بعض الشباب المستجوب.

وبما أن الشباب يمثل الفئة العمرية الأكثر حيوية ونشاطا جنسيا يبقى الجنس أو بالأحرى (قوة الجنس) المرادفة لقوة الإنجاب والعمل، هو الأمل الوحيد لدى البعض للتخلص من هامشيتهم والخروج من وضع مجتمعي مظلم خال من الأمل، فبفضل تطور السياحة في مدينة عنابة بدأت تنتشر ظاهرة الهجرة لدى شبابها.

وتبين الملاحظة البسيطة للعلاقات بين بعض متقدمي السن الأجانب من الجنسين، خاصة من أوروبا، وبعض الشباب من المدينة، هذا النوع من الشباب لا يجد حرجا أمام الأسرة والمجتمع المحلي بل يجد نوعا من التفاخر والتمايز عن أقرانه عندما ينجح في إقامة علاقة قد تمكنه من الهجرة، وفي كثير من الأحيان، يجد تشجيعا من طرف الأسرة لأنه لا يحل مشكلته فقط، بل مشكلة الأسرة بأكملها، ففي عديد الحالات نجده يساعد بعض إخوته وأقاربه على الهجرة أو يوفر لهم المال باستقراره في المهجر، وفي هذا الإطار يذكر أحد المهاجرين إلى فرنسا كيف كان يستحضر كل لباقته وفنياته في الممارسة الجنسية من أجل أن يقنع الفتاة الفرنسية برأسماله في "الثقافة الجنسية" ومن ثم إقناعها بالزواج.

استخدم الباحث المنهج الانثروبولوجي القائم على الملاحظة بالمشاركة والإخباريين والمقابلة والأساليب السوسيو-انثروبولوجية لتحقيق التكامل المنهجي بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا والذي وظفت في التحليل وفهم إجابات المبحوثين، ونعرض جدول يبين الشباب المهاجر التي شملته الدراسة (تم مقابلتهم في مدينة عنابة) حسب الأساليب والإستراتيجيات المتبعة في الهجرة غير الشرعية.

جدول رقم01: يبين طرق وأساليب الشباب المهاجر في استخدام إستراتيجية الزواج

المهاجر	وضعه الحالي	جنسية زوجته	بلد التعرف على الزوجة
01	تزوج فرنسية تحصل على وثائق الإقامة ويشتغل هناك	فرنسية	فرنسا
02	تزوج فرنسية واستقر هناك	فرنسية	فرنسا
03	تزوج فرنسية ثم جزائرية ومستقر في ايطاليا	فرنسية-جزائرية (مزدوجة)	الجزائر
04	تزوج فرنسية	فرنسية	الجزائر
05	تزوج فرنسية (أصول جزائرية)	فرنسية-جزائرية (مزدوجة)	الجزائر
06	تزوج فرنسية تحصل على وثائق الإقامة فانفصل عنها وتزوج جزائرية وهو مستقر في فرنسا	فرنسية-جزائرية (مزدوجة)	الجزائر
07	متزوج من فرنسية ومستقر في فرنسا	فرنسية-جزائرية (مزدوجة)	الجزائر
08	متزوج من قريبته ومستقر في فرنسا	فرنسية-جزائرية	الجزائر

		(مزدوجة)	
09	متزوج من قريبته ومستقر في انجلترا	لم يتزوج أجنبية	//////////
10	يقيم في سويسرا	فرنسية-مغربية (مزدوجة)	فرنسا

المصدر: الجدول من وضع الباحث تم بعد إجراء مقابلات مع عينة بحثية، في جويلية 2015

يبين الجدول أعلاه أن من بين (10) مهاجرين شملتهم الدراسة نجد (07) منهم أي أكثر من الثلث استعملوا الزواج، حقيقة أم تمويها، أو بالأحرى الجنس كغطاء لهجرتهم ولإضفاء الصبغة القانونية عليها، ولعل هذا ما يؤكد ما توصلنا إليه سابقا في أطروحاتنا النظرية، من أن الجنس يعتبر إستراتيجية للهجرة والخروج من دائرة البطالة وبالتالي الدخول في دائرة الفعل ونقصد بذلك الدخول في عالم العمل والاستقرار الاجتماعي والمهني، ولكن الشباب لا يقف في حدود هذه الإستراتيجيات بل يحاول أن يخلق استراتيجيات جديدة ومنها إستراتيجية الزواج ببنات أو أبناء المهاجرين الذين يحملون جنسية بلد الإقامة.

ب- **الزواج ببنات أو أبناء المهاجرين**

في ما يخص زواج وعلاقات الشباب بأبناء وبنات المهاجرين لاحظنا أن هذه الإستراتيجية تتدخل فيها العائلة، فالمهاجر يرغب في تزويج ابنته من شاب من الوطن ومن المنطقة أو الدوار تحديدا، وفي هذه الحالة يشترط في الزيجة القرابة والأخلاق والقدرة على الكسب، لذلك نلاحظ أن الأولياء لا يشترطون الوظيفة أو المهنة مثلما هو الأمر في الزيجات العادية، وكأن هناك تفاهم ضمني يتمثل في تبادل بين رأساميل رمزية لدى الشاب وأخرى اقتصادية لدى الأسرة في المهجر، وبالتالي فالأسرة المهاجرة ترغب في تزويج أبنائها أو بناتها من أجل المحافظة على الرابطة التي تربطهم بمجتمعهم الأصلي وخاصة بالجماعة، أما الشاب وعائلته فهما يرغبان في الزواج من ابنة المهاجر من أجل الهجرة وبالتالي تحسين ظروف العيش، وقد بدأت هذه الظاهرة تنتشر، على نحو ما يمكن ملاحظته من خلال الجدول التالي:

جدول رقم 02 يبين الزواج ببنات المهاجرين ووضعية المهاجر

المهاجر	**وضعه الحالي**	**وضع المهاجر بعد الهجرة**	**وضعه قبل الهجرة**
01	استقر في فرنسا	يشتغل سائقا	يشتغل سائقا وقتيا
02	استقر في فرنسا	عامل في القطاع الخاص	عاطل عن العمل
03	استقر في ايطاليا	عامل في القطاع الخاص	صاحب مكتبة
04	بصدد إعداد وثائق الإقامة	عاطل عن العمل	عاطل عن العمل
05	استقر في فرنسا	عامل في محل تجاري	عمل وقتي
06	استقر في فرنسا	عامل في القطاع الخاص	عاطل عن العمل
07	استقر في فرنسا	عامل في القطاع الحكومي	عاطل عن العمل
08	استقر في فرنسا	عامل في القطاع الخاص	عاطل عن العمل
09	استقر في بريطانيا	متعاقد	موظف حكومي
10	استقر في سويسرا	عامل في القطاع الخاص	عامل في القطاع الخاص

المصدر: الجدول من وضع الباحث تم بعد إجراء مقابلات مع عينة بحثية، في جويلية 2015

إذا كان الجدول يقف في حدود ذكر الزيجات التي تمت فعليا، فالملاحظة بالمشاركة والمقابلات مع الشباب تبين لنا محاولات ربط العلاقات والزواج مع بنات وأبناء المهاجرين عند العودة في العطل خاصة في فصل الصيف، حيث نجد عديد الشبان يحاولون ربط علاقات مع أبناء (وخاصة بنات) المهاجرين قصد الزواج في إطار إستراتيجية الهجرة، وفي هذا الإطار يشير أحد الشباب إلى أن إحدى العائلات المهاجرة رغبت في تزويجه ابنتها فقبل بذلك وظن أن عهد الحرمان قد ولى وعندما علم أن والدها يريدها أن تبقى بالوطن ويساعدهم على إقامة مشروع اقتصادي، رفض العرض وفسخ الخطوبة لأنه، كما عبر عن ذلك بصراحة قائلا: أريد الهجرة.

إذن كأنما الشباب يشتركون في رأسمال محدد وهو القوة الجسدية أو إن صح التعبير (القوة الجنسية) التي يعرضونها على كل من يرون فيه فرصة للهجرة، إلى أن أضحت الهجرة لدى البعض هدفا في حياتهم، وفي هذا الإطار يذكر مدير مكتب التشغيل في المدينة، أن المكتب يصبح شبه عاطل في الصيف (أي في الموسم السياحي) حيث يقل إقبال الشباب طالبي الشغل على المكتب لأنهم يلهون في التبزنيس" [15] وعندما تغادر "الاميغرية" [16] المنطقة في نهاية العطلة الصيفية، يتهافت الشباب الذين لم يحالفهم الحظ في الهجرة على مكاتب التشغيل.

إذا أمام الواقع المرير الذي يعيشه الشاب نجده يقطع مع القيم، الأخلاق والثقافة السائدة في المجتمع الجزائري وتحديدا في المجتمع المحلي (مدينة عنابة) بغية الخروج وتجاوز هذا الواقع، فلتحقيق إستراتيجية فردية متمثلة في الهجرة نجد الشاب يتجاوز كل القيم التقليدية وحتى القانونية بل تتشكل لديه قيما جديدة تتماشى مع طموحاته لتجاوز ظروفه الصعبة في مجتمعه الأصلي، وهو ما تصور له ظاهرة الهجرة غير الشرعية كحل استراتيجي لمشاكله المتراكمة.

2. الطرق الفردية والتسلل عبر محطات الانتقال (الترانزيت)

تأخذ العصابات المنظمة بتطوير وسائل تهريب الأشخاص بطرق مختلفة، تبعا لأذواق الراغبين، إذ تمكنت من تزوير تأشيرات دخول إلى دول فرنسا ايطاليا وبعض دول أوروبا، أو من خلال النزول إلى مطارات الدول الأوربية بصفة عابرين (ترانزيت)، ولكن ما إن يضع الشاب الجزائري قدمه في المطار حتى يسارع بالفرار وبتمزيق جوازات السفر التي يحملها وعدم استكمال رحلته إلى وجهته المنصوص عليها في تأشيرة السفر، كل ذلك "بالتنسيق مع عصابات متخصصة في مثل هذا النوع من عمليات التزوير، غير أن سلطات الأمن في مطارات الدول الأوربية التفتت إلى هذه الطريقة فبادرت بترحيل هؤلاء إلى بلدانهم الأصلية مرة أخرى وعدم السماح بدخول أراضيها"[17].

3. الإقامة غير المشروعة

تتشكل لدى الشباب العاطل صورا، أحلاما وآمالا انطلاقا مما يراه من نعمة بادية على من هاجروا (حرقوا) قبله، بالمقابل نجد بعض الشباب في مدينة عنابة يعيش معاناة وخصاصة وحرمانا على شتى المستويات اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، ترفيهيا ونفسيا، وفي هذا الإطار يُسَمَعنا أحد الشباب العاطلين والراغبين في الهجرة بشتى الوسائل إلى أغنية راي يفضلها[18]، حتى يقنعنا بمشروعية رغبته، وتحمل هذه المقتطفات:

"لا فيزا لا باسبور ---------- (لا تأشيرة لا جواز سفر)

لا قعدت هنا راني نبور----------(إذا بقيت هنا سأعنس)

صاحبتي مشات البرة----------(صديقتي ذهبت إلى الخارج)

وجاب الكابريولي----------(جلب معه سيارة فاخرة)

وأنا قعدت هنا في الكارتي ندور----------(وأنا بقيت هنا أتسكع في الحي)

إذن يبدو واضحا أن الهجرة غير الشرعية مشروعا شبابيا يعتمده الشاب لتجاوز واقعه البائس والخروج من دائرة التهميش والدخول إلى دائرة الفعل، رغم المخاطر المحيطة بهذه العملية.

"راني حالف نحرق البرة ولا هذه العيشة المرة"----------(لقد أقسمت أن أهاجر سرا ولا أعيش هذه الحياة البائسة)

"جو منفو يا أمواج البحر وقته تدي لي العمر"---------(لا يهمني يا موج البحر حتى لو أخذت حياتي)

فأمام وضع يتسم بالبطالة، والتهميش، والإقصاء والحرمان نجد الشاب يبحث عن الهجرة غير الشرعية بكافة أنواعها، مهما كلفه ذلك ولو كان الموت (قوارب الموت)، وفي هذا الإطار نذكر نماذج لشباب من مدن مثل: تلمسان، غليزان، عنابة هاجروا سرا إلى بلدان أوروبية مختلفة، وهذا ما يوضحه الجدول الآتي.

جدول رقم 03: يوضح طرق الهجرة غير الشرعية للشباب محل الدراسة

المهاجر	طريقة الهجرة	اتجاه الهجرة	الوضع قبل الهجرة	المستوى الدراسي	تاريخ الهجرة	السن عند الهجرة
01	مجهولة	فرنسا	يشتغل سائقا	3 ثانوي	2008	21 سنة
02	مجهولة	فرنسا	عامل في القطاع الخاص	تكوين مهني	2011	24 سنة
03	مجهولة	ايطاليا	عامل في القطاع الخاص	تكوين مهني	2008	24 سنة
04	مجهولة	فرنسا	عاطل عن العمل	3 ثانوي	2010	19 سنة
05	مجهولة	فرنسا	عامل في محل تجاري	3 ثانوي	2011	20 سنة
06	سياحة	فرنسا	عامل في القطاع الخاص	2 ثانوي	2011	20 سنة
07	سياحة	فرنسا	عامل في القطاع الحكومي	ثانوي	2011	19 سنة
08	مجهولة	فرنسا	عامل في القطاع الخاص	ثانوي	2005	23 سنة
09	عمل	بريطانيا	متعاقد	جامعي	2005	28 سنة
10	سياحة	سويسرا	عامل في القطاع الخاص	ثانوي	2013	24 سنة

المصدر: الجدول من وضع الباحث تم بعد إجراء مقابلات مع عينة بحثية سنة 2015

يبين الجدول أعلاه أن البطالة وضعف المستوى التعليمي تعد من الدوافع الأساسية التي تجعل الشباب المبحوث يفكر في الهجرة غير الشرعية، فهؤلاء الشباب لم تضق بهم السبل في مجتمعهم المحلي فقط، بل في المجتمع عموما، لذلك يتخذ الشباب الهجرة خارج الوطن، بمختلف أشكالها، كإستراتيجية بديلة عن إستراتيجية الدولة، قصد تحقيق الاندماج المهني والدخول في دائرة الفعل الاقتصادي والاجتماعي.

تعتبر الهجرة إذا من الإستراتيجيات المهمة لدى الشباب في المنطقة خصوصا ولكن إمكانية الهجرة بأنواعها المختلفة، والتي تعرضنا إليها سابقا، غير ممكنة لكل الشباب، لذلك نجد مجموعة هامة تتخذ أساليب هجرة غير شرعية أخرى معروفة (عبر تركيا) أو غير معروفة (تزوير وثائق ملف التأشيرة) من أجل تحقيق هدفها.

رابعا. أهم دوافع وظروف الهجرة غير الشرعية في الجزائر

لقد عرفت هذه الظاهرة تطورا وتزايدا في السنوات الأخيرة في الجزائر، ففكرة الهجرة أصبحت تتملك الشباب العاطل عن العمل وتنتشر فيما بينهم، وتحتدم وتشتد خاصة في فصل الصيف أي عند عودة المهاجرين غير الشرعيين إلى مناطقهم والذين يعتبرون قدوة إلى من ينوي الهجرة من شباب المنطقة، هؤلاء الذين كانوا يعيشون وضعية بائسة قبل الهجرة، أصبحوا يتمتعون بالسيارة وبنوا منازل وتزوجوا، وتكون هذه الممارسات ذات نزعة تفاخرية تحفز الشاب على إتباع هذا النهج.

1- البطالة، الفقر والتهميش

تعتبر البطالة من المواضيع الهامة التي بدأت تحظى باهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية،[19] فمنذ الثمانينات بدأ الشباب في الجزائر يقدم على هذه السلوكيات، حيث أصبحت تمس كافة الشرائح الشبابية حتى الأكثر حظا(ونقصد بذلك الأكثر تعليما)، ويتطلب فهمها وتفسيرها تقنيات بحث خاصة تتسم بالشرعية فتصبح موضوعا من مواضيع الانثروبولوجيا (انثروبولوجيا البطالة)، بالاهتمام بدراسة انثروبو- مركزية للعاطلين عن العمل، هؤلاء الذين ينظر إليهم الآخرون على أنهم بطّاليين (مساكين، بؤساء، فاشلين)، وكما نلاحظ أن هذه المصطلحات تتضمن ظاهريا معاني سلبية ودونية في مخيال المواطن الجزائري، مما يجعلنا نتساءل لماذا كل هذه النظرة الدونية لهؤلاء الشباب؟ تبين الملاحظة البسيطة أن العمل هو الأساس الذي تبنى عليه الهوية الاجتماعية، ويعتبر الأرضية الأساسية لبناء المجتمع، والركيزة الأساسية للمرور إلى دائر الفعل، أما البطالة فهي تمثل السلبية أي اللافعل وعدم الإنتاج، حيث ينظر إلى العاطلين على أنهم عديمي الفائدة في المجتمع، فهم لا يشتغلون ومن ثمة غير منتجين وغير فاعلين.

إن تجربة البطالة محاطة دائما بمراكمة المعيقات، الإقصاء والتهميش، فقدان المكانة ويعانون التهديد بالخروج عن الجماعة، ويخضعون لضرورة التسليم بالمكتوب والقدر، فهي الملامح السوسيولوجية للبطالين والعاطلين عن العمل، هذه الملامح والخصائص، لا يؤكد عليها علماء الانثروبولوجيا فقط، وإنما كذلك الحس المشترك، هذا الحس الذي يعاد تركيبه وتحليله ثم فهمه وتفسيره من طرف الباحثين، وبالتالي يمكن القول أن هذا المجال البحثي الذي يتناوله هذا العنصر يضع العاطل في قلب التحليل.

وفي تعريفنا للعاطلين عن العمل ننطلق من التعريف المؤسساتي، حيث يعرف المعهد الوطني للإحصاء العاطلين بأنهم: "أولئك الذين لم يشتغلوا في الأسبوع السابق للإحصاء وهم في حالة بحث عن شغل، وينقسم هؤلاء إلى فئتين: فئة الأشخاص الناشطين الذين لا يشتغلون (59-18 سنة) وهم العاطلون، وفئة الأشخاص الناشطين الذين لا يشتغلون (15- 17 سنة) ومن 60 سنة فما فوق هي فئات أخرى غير ناشطة"[20]، وفي نعتبر أن عالم البطالة متميز بنشاط محوري وهو "تدبير الذات" (débrouillardise)، أي كيفية تدبير العاطلين لشؤونهم واحتياجاتهم اليومية (من القهوة إلى السكن، ومن السيجارة إلى تدبير أماكن للقاءات الحميمية مع الجنس الآخر) إذن هذه الممارسات هي ما يميز عالم الشباب العاطل، لذلك نرى أن البطال هو كل شخص له القدرة والرغبة للعمل، دون أن يكون له الفرصة للممارسة نشاط يثبت به كينونته(وجوده).

بهذا المعنى، نعتبر البطالة غير متصلة فقط بالمراكز والمواقع الاجتماعية (طالب الشغل، متربص، عامل وقتي، عامل موسمي) بل هي متحررة من التصنيفات القانونية مما يفتح أفاقا رحبة، سوسيو- انثروبولجية تفهمية، لهذه الوضعية[21]، فالعاطل يتميز ببعض النشاطات والممارسات غير المتصلة بالعمل والشغل وهي النشاطات التي تعطي قيمة اجتماعية لهذه التجربة أو المرحلة (تجربة البطالة) والتي يجب على الباحث في العلوم الاجتماعية أن يضعها في صلب بحثه واهتمامه، وما يدفعنا منطقيا إلى الأخذ بعين الاعتبار الأساليب التي يتخذها العاطلون ليعرفوا بأنفسهم، لذلك يمكن للباحث أن يركز على نمط حياتهم وتعايشهم الاجتماعي، وهذا ما يقودنا إلى البحث في معاشهم اليومي من خلال عديد الممارسات

والنشاطات مثل: ممارساتهم الاستهلاكية ونشاطاتهم الثقافية التي تضع في الميزان تحقيق ذواتهم، وتعايشهم الاجتماعي واندماجهم في قنوات التكافل والتضامن فيما بينهم، كما يمكن تتبع إيقاع الحياة لديهم ومسألة الزمن وكيفية عيش الوقت، حيث يرى المهتمون بموضوع الشغل أن وقتهم غير محدد ومضبوط، كما يمكن تتبع كيفية تشكيل هوياتهم الخاصة ورفضهم الانضباط للتحديدات والتصنيفات الاجتماعية.

كل هذا يبين أن الشباب العاطل يأخذ مسافة تجاه القيم والأخلاقيات الموجودة وهم يخلقون ويجربون أشكالا جديدة من الأدوار الاجتماعية بعيدة عن الأدوار المعتادة في عالم المشتغلين وأصحاب الأجور، وباختصار فالبطالة ليست فقط تجربة لشكل من الإقصاء، إنما هي كذلك مخبر اجتماعي ومجال للتجريب والخلق،[22] لذلك تتبعنا الشباب العاطل عن العمل في علاقته بمؤسستين مختلفتين الأولى أولية العائلة والثانية ثانوية المقهى[23].

2- العطالة والشعور بالدونية

تعمل البطالة وما تحمله من إقصاء وتهميش متواصلين، على دفع الشاب لتكوين أخلاق وممارسات فردية، مختلفة عن الممارسات اليومية وقيم المجموعات الأسرية،[24] التي تشكل في النهاية هوية الشاب العاطل.

وانطلاقا من تلك الهوية، تتكون شرعية الممارسات اليومية للشاب العاطل، فهو يفقد العديد من الشرعيات مثل: شرعية الزواج واتخاذ القرار، ولكن يكتسب شرعيات أخرى ذات ممارسات يومية فردية ومجموعاتية فهو يحصل على نوع من الحرية لم يجدها في باقي المؤسسات الاجتماعية خاصة في مؤسسة الأسرة، علما أن هذه الأخيرة لازالت تحافظ على قوة البنية، ومناعة في استقرار نشر قيمها وبسط سلطانها ونفوذها على الأفراد،[25] وخاصة الشباب، إلى درجة أن البعض يرى: "أن سلطة العائلة بما تنطوي عليه من أنظمة المسموح والممنوع وبعد تمثل الشاب لها، خلال مرحلة الطفولة بشكل كامل، تلاحقه وتحدد حركاته الجسدية وتنمط عطاءه الذهني، وتصوغ تموجات عواطفه وسيولة انفعالاته، وتؤطر علاقاته الاجتماعية، إنها بشكل آخر تحدد أسلوب اتخاذ قراراته، وإن حاول الخروج عنها أدى ثمنا نفسيا باهظا"[26]، ويشير ألفرد أدلر في نفس السياق " أن مشاعر الدونية، عدم الكفاية ، عدم الثقة بالنفس، هي التي تحدد هدف الفرد في الوجود، وهناك ذلك الميل للظهور عندنا جميعا..... وسنجد أول المؤشرات على نمو وتطور الرغبة في أن يعترف الجميع بوجودنا يسير جنبا الى جنب مع الشعور بالدونية، والغرض من هذه المؤشرات هو الحصول على حالة يمكن فيها للفرد أن يبدو متفوقا على البيئة المحيطة".[27]

إلا أن هذا الحضور الشديد للأسرة وما يمكن أن تقدمه للشاب، الجماعة أو باقي المؤسسات الأخرى تقابله وضعية خاصة للشباب العاطل، فهو يجعل من الأسرة تفقد بعض وظائفها وبالتالي سلطتها، فالتحول السريع للقدرات والإمكانيات المعرفية للشباب العاطل والفارق والاختلاف التنشوي بين الشباب، خاصة المتعلم والحاصل على الشهادات من ناحية، والأسرة وتحديدا الأبوين من ناحية أخرى، يعمل هذا الفارق على إبعاد الشاب عن عائلته معرفيا، ثقافيا وقيميا نتيجة عدم التفاهم والتوافق في كثير من المسائل خاصة في المواقف والسلوكيات مما سيؤدي به إلى الفردانية والتفرد خاصة في اتخاذ قراراته المهمة، وبذلك تصبح الأسرة مجرد وسيلة اقتصادية وموردا ماليا فقط، فهي ليست إلا بنكا يوفر للشاب مصروفه اليومي أو على الأقل توفر له المأكل والملبس ومكانا للنوم.

إذا كان هذا الوضع الناجم عن البطالة الذي يتميز باللامسؤولية واللافعل يراه البعض وضعا مأسويا للشباب، فإن البعض منهم يرى، حسب بعض المقابلات، أنه وضع مريح فهو لا يتعرض إلى ضغوطات مثل الشاب العامل الذي يفترض أن يساهم في ميزانية الأسرة وأن يوفر المال من أجل بناء منزل والزواج، كما يفترض أن يشارك ويساهم في قرارات الأسرة، وفي هذا الإطار قمنا بمقارنة بين شاب عاطل عن العمل، وأخيه وهو شاب يشتغل، فوجدنا الأخير أكثر معاناة بما أنه يفكر في التزاماته

المتعددة اتجاه عائلته واتجاه خطيبته والتزاماته الأخلاقية والمهنية التي تفرض عليه الانضباط، لذلك نجد الأول في بعض الأحيان أكثر راحة من الثاني لأنه خال من أية مسؤولية عائلية، اجتماعية أو مهنية فهو لا يعيش ضغوطات كثيرة.

يمكن القول أن علاقة الشاب العاطل عن العمل بأسرته، علاقة ضعيفة مما يقلل من ضغطها وبالتالي فالبطالة تعتبر ملجأ لبعض الشباب للفرار من ضغط السلطة العائلية وحتى اللاعائلية، وبالتالي فهي استراتيجيا تشرع لهم ممارساتهم اليومية، كما تشرع اندماجهم في مجموعات شبابية بصدد التشكل، إن لم تكن قد تشكلت بعد، وفي هذا الإطار يندرج اختيارهم للبطالة أو استسلامهم لها، فإذا كان حضور هؤلاء الشباب ضعيف وغير مرئي في الأسرة فالأمر يختلف في المجالات الأخرى، مثل: المقهى والشارع.

3- الفراغ وثقافة المقهى

المقهى مجال تنسج فيها علاقات اجتماعية جديدة وتمرر فيه أذواق وأنماط ثقافية مستحدثة وكذلك هي مجال للتعبير عن قيم جديدة، فالمقهى مجال "للترفيه"، ونقصد بالترفيه هنا النشاط الذي يمارس في وقت فراغ، وكما أشرنا سابقا فالعاطل عن العمل يخرج عن إيقاع الحياة الاجتماعية لباقي الجماعة أو المجتمع عموما، بما أنه ليست لديه التزامات مهنية، اقتصادية، اجتماعية أو سياسية، فوقت الفراغ يتملك الشاب العاطل ويحتويه أو بالأحرى يحاصره وبالتالي مثلما يرى أحدهما، "يصبح وقت الفراغ عند الشاب العاطل يحمل كثيرا من المعاناة"[28]، يقضى هذا الوقت الفارغ في معظمه في المقهى، أين يتم ربط علاقات اجتماعية ثنائية وجماعية، وأين يتم تبادل الأخبار.

وقد لاحظنا أن مرتادي المقهى من العاطلين يشكلون درجات، فمن خلال تعامل صاحب المقهى والآخرين مع هذه الشرائح الشبابية العاطلة، نلاحظ تراتبية وتمييزا في المعاملة، وتبنى هذه التراتبية أساسا على الانتماء العائلي والدرجة العلمية أو الشهادة التي تحصل عليها الشاب العاطل، حيث نجد الطلبة الجامعيين وذوي المستويات التعليمية العليا يعاملون بحظوة من طرف صاحب المقهى، فهو يجلس معهم على نفس الطاولة ويلعب معهم الشطرنج والورق ولا يدقق كثيرا في ما استهلكوه، ولعل ذلك يعود إلى ما لاحظناه من تضامن بين هؤلاء الشباب العاطل المتعلم والشباب الذي اشتغل حديثا الذين لازالوا يرتادون المقهى فهم يسددون ثمن المشروبات التي استهلكها بعض أصدقائهم العاطلين، كما أن هؤلاء الجامعيين والحاصلين على شهادات علمية يعاملون بعطف من طرف الآخرين وخاصة أفراد الأسرة، الذين يزودونهم بمصروفهم اليومي بما أنهم يعتبرون غير مسئولين عن وضعيتهم.

هؤلاء الشباب. إذن، يقضون وقتهم في المقهى يمارسون نشاطاتهم اليومية من حكاية قصص نجاح المهاجرين وأحوالهم لعب الورق يشربون الشيشة والقهوة، ولكن لا يمارس الجميع هذا النشاط في هذا الفضاء، بل يقضي جلهم، وخاصة الذين ليس لهم مستوى تعليمي كاف، وقتهم في الحديث والدردشة وتبادل الأخبار، فهم يستغلون المقهى كملجأ يقيهم برد الشتاء وحر الصيف، والأهم من ذلك يقيهم نظرة الآخرين، ولكن ما لاحظناه هو كثرة ترددهم على المقهى في الشتاء، حيث يتكدسون على طاولة لعب الورق، هذه اللعبة التي لا تسمح باللعب لأكثر من أربعة، ولكن نجد الباقي يتفرجون يتقاسمون القهوة ويتبادلون السجائر، إننا نلاحظ نوعا من التضامن بينهم في مجال الاستهلاك اليومي في المقهى، لأن الشاب الذي يمتلك اليوم ما يمكنه من الاستهلاك في المقهى سيفقده في الغد وربما سيجد عند زميله أو صديقه، ما يلبي حاجته.

يمكن القول أن المقهى كفضاء قد تم احتلاله جزئيا من طرف الشباب العاطل عن العمل بمختلف أصنافه، وقد أصبح بذلك فضاءه الرئيسي الذي يقضي فيه وقتا أكثر من الوقت الذي يقضيه في المنزل بما أن المنزل لا يذهب إليه إلا في أوقات محددة للأكل أو النوم، فالحياة الفعلية للشاب يعيشها في هذا المقهى أين يتقاسم وضعيته، مواقفه وآراءه مع اصدقائه العاطلين عن العمل، بينما نجده في المنزل مهمشا ومقصيا.

إن المقهى لدى الشاب العاطل تعوض دور الشباب والثقافة، وتمكن الشباب من الإفلات من مراقبة المجتمع، وفي هذا الإطار لاحظنا أن كثيرا من الآباء يتحاشون الدخول إلى تلك المقهى فهم لا يرتادونها حتى لا يجدون أنفسهم وجها لوجه مع الأبناء وإذا كان أحدهم في حاجة إلى ابنه فهو لا يرتاد المقهى وإنما يبقى في انتظاره في الخارج، ولاحظنا كذلك أن المسئولين والمسيرين المحليين يتحاشون ارتياد هذه المقاهى، ويعود ذلك لسببين: 1/تحاشي مواجهة العاطلين، 2/أن هذا المقاهي يرتاده المهمشون، الرافضون لبعض نواميس المجتمع والمعارضون لسياسة الدولة، وبالتالي يمكن القول أن هذه المقاهي فضاء محتل من طرف الشباب العاطل، المقصي والمهمش اجتماعيا وسياسيا.

يبدو إذن أن البطالة واقع ملموس، يمس كافة الفئات الاجتماعية ولكن من الواضح أن الفئة الأكثر تضررا هي الفئة الشبابية، والتي طالت مدة عطالتها، إلى درجة أنها تعايشت معها ولم تعد تشعر بوطأتها، بل أكثر من ذلك فقد مكنت الشاب من الاندماج في مجموعات شبابية يتقاسم معها نفس أنماط التفكير، المشاعر والفعل.

وبذلك استقال الشاب من المجالات الأساسية في المجتمع وأصبح لا علاقة له بمختلف المؤسسات الرسمية (الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية والثقافية)، 1/ اقتصاديا: ليس له علاقة بالمؤسسات الاقتصادية والمالية كالبنوك، 2/ سياسيا لاعلاقة له بالأحزاب والمناسبات السياسية، فعلاقته بالسياسة ضعيفة إن لم تكن منعدمة عند البعض، 3/ اجتماعيا فعلاقته بالأسرة ليست وطيدة، وكذا علاقته بالجنس الآخر فهي ضعيفة ودون استراتيجية لأنه لا يرى فيها زوجة، صديقة أو حبيبة بل مجرد موضوع ممارسة جنسية عابرة، 4/ ثقافيا فعلاقته ضعيفة بالمؤسسات الثقافية والترفيهية الرسمية مثل دار الثقافة والشباب أو المكتبة العمومية.

إن الشباب العاطل وخاصة المستقيل اجتماعيا والذي اختار البطالة، يميل كما لاحظنا إلى الاختلاف والتناقض مع كل ما هو مؤسساتي ورسمي، فالمؤسسة هي التزامات وواجبات، عكس الفردية التي يعيشها الشاب العاطل والمستقيل، فهي تعتبر أكثر حرية وبالتالي تعتبر استراتيجيا شبابية.

4- الرغبة في تحقيق الذات والرفاهية الاجتماعية

إن الترسبات العديدة لمعاناة الشباب من مشكلات حياتية يومية تصنع واقعهم وترسم تفاصيله بشكل مستمر، وهي تؤثر بصورة مباشرة على العواطف الاجتماعية والأحاسيس الذاتية، اتجاه ذواتهم واتجاه الآخر، فالعوائق التي تم الحديث عنها سابقا، مثل: البطالة، الفقر والتهميش إضافة إلى مشاعر الظلم والحرمان، تجعل الشاب يلتمس داخله بصورة واعية وإحساس عميق بالنقص والدونية وعدم القيمة الوجودية ضمن السياق الاجتماعي الذي يشكل من خلاله كل علاقته، أفكاره، طموحاته وسلوكياته.

إن الشعور بالدونية والنقص عند الشاب الراغب في الهجرة إنما هو ارتداد نفسي لواقع اجتماعي غير محبب، تغيب فيه كل المعالم والمضامين الرموزية وحتى التشكيلات البنائية المختلفة، التي تجعل منه يبتدع معاني واعية وايجابية لوجدانه الاجتماعي، بل تعزز الإحساس بالكيان والقيمة في الفعل.

كما يصاحب هذا الشعور بالازدراء الاجتماعي والارتكاس، شعور يدفع الشباب نحو التفوق وتحقيق الذات، ومحاولة تقديم تقييمات ايجابية للكينونة، بحيث نجد أن المشاعر الاجتماعية في الكثير من الأحيان ما تحدد للشباب درجة تقديراتهم لذواتهم وأهدافهم ومقاصدهم حيث يشير أدلر إلى "إن هذه النزعة أو الرغبة، قد تمت الإشارة إليها على أنها سعي نحو تحقيق الأمان والبعض سماها سعيا نحو الحفاظ على الذات، لكن أيا كان الاسم الذي نعطيه إياها فإننا سنجد أن جميع البشر بهذا الشعور (ألا وهو الصراع لكي يسمو فوق حالة النقص ويصل إلى وضع التفوق)، وبهذا يكون قد حول الهزيمة إلى نصر وارتفع من أسفل إلى أعلى". (29)

والرغبة الجامحة نحو تحقيق الذات لدى الشاب الذي يسعى إلى الهجرة غير الشرعية هو نابع عن حالة العجز والمواجهة، فهو إنما ينزع إلى مثل هذه المغامرة من أجل تحقيق الذات والوصول إلى الحلم

المنشود (العمل، الزواج، الأسرة والرفاهية...) والذي يعتبرها انجازا يسعى من خلاله إلى تأمين الحاضر والمستقبل وهذا ما يحقق له أهدافه المنشودة والسعادة الوجدانية.

خامسا. الهجرة غير الشرعية، محاولة الاندماج في غير المحلي

إن الشباب البطال (سواء كان خريج الجامعة أو ذو مستوى تعليمي محدود)، الذي تنسد أمامه آفاق البحث عن المستقبل ويجد نفسه دون عمل، يمثل نسبة مهمة في الجزائر ومتصاعدة من سنة إلى أخرى، هذه الشريحة التي تعيش وضعا صعبا في مناطقها، فكما يصرح بعضهم أنه تم إطفاء النور من حولنا (نحن هنا منسيون) لذلك فهو يسعى إلى الهجرة باتجاه الدول الأوروبية مدن الشرقية باتجاه ايطاليا وغربا نحو اسبانيا ، إلا أن هذه الدول في الغالب لا تكون دول الاستقرار للمهاجر غير الشرعي الجزائري وإنما تكون دول عبور نحو دول أكثر طلب لليد العاملة مثل: فرنسا، بريطانيا وألمانيا أو يجد فيها المهاجر دعم من بعض أقرباء مغتربين أو جيران أو أصدقاء سبق وان استقروا فيها، لذلك تعمل هذه الفئة على الهجرة غير الشرعية بشتى الطرق لكسب عيشها أو للبحث عن حياة أفضل.

1. الواقع والمتوقع من خلال الهجرة غير الشرعية

تحدث الهجرة غير الشرعية نتيجة لمجموعة من القوى المتعاكسة: 1/ القوى الطاردة 2/ القوى الجاذبة، وتمثل الظروف الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، الأمنية والديموغرافية التي تعاني منها الجزائر كدولة قوى طاردة وهذا ما يميز واقع منطقة الدول العربية، أما الظروف الأفضل ومستوى العيش الأرقى في أوروبا فتمثل القوى الجاذبة وهي المتوقع من الهجرة غير الشرعية، وفي دراسة للباحث الهولندي برنار فنما (Venema Bernard) يشير إلى أن منطقة عنابة التي كانت تعرف بـ "بونة" قد عرفت أربع أصناف من المهاجرين: نذكر منها الصنف الرابع يخص الهجرة خارج الوطن، في حين ثلاثة أصناف تخص الهجرة الداخلية.[30]

هذا النوع من الهجرة ارتبط أساسا بفترة الاحتلال الفرنسي حيث شكل نوعين من الهجرة هجرة قسرية من طرف فرنسا بغية جلب يدل عاملة فنية ومؤهلة، إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها وهجرة إرادية تدخل ضمن الهروب من الظروف الاقتصادية السيئة في الجزائر في فترة الاحتلال (1945-1962) وهجرة أثناء الاستقلال شملت ما يقارب 162 ألف جزائري لظروف متعددة شهدتها الجزائر آنذاك،[31] ولتعود هذه الظاهرة بوتيرة متسارعة وبشكل ملاحظ أثناء ما سمي بالعشرية السوداء وبعدها(سنوات التسعينات)، وكثيرا ما ارتبطت بالتذبذب واللااستقرار السياسي والاقتصادي بمقدار توفر أو تراجع قاعدة الأعمال الشابة وبحجم الزيادة في القوة العاملة وبمدى توفر فرص العمل في الجزائر.

وبهذا يصبح الهدف المتوقع من الهجرة غير الشرعية مندرجا في إطار تحسين موقع الجماعة (الأسرة) والنجاح الاجتماعي عموما، فالهجرة غير الشرعية هي حركة إقامية من أجل أن يستثمر المهاجر من تكوينه أو تعليمه ليجد شغلا أكثر مردودية أو بكل بساطة من أجل تحقيق نمط عيش أفضل، والمناطق المستقبلة هي مجالات تتوفر فيها إمكانية الحصول على المنتوجات الاستهلاكية والخدمات بسهولة أكثر مما هو الحال في المناطق التي هجرها الشباب، ففي هذه المناطق الجديدة يصبح الصعود الاجتماعي ممكن التحقق والنجاح الاجتماعي أكثر إمكانية مما هو عليه الحال في المناطق المهجورة، فتتغير أدوارهم ومكانتهم.

2. الهجرة غير الشرعية من أجل دور ومكانة أفضل

تعتبر الهجرة غير الشرعية تحركا تحت ظروف أساسية ورئيسية تتيح للأفراد والجماعات تحقيق قدر من التوازن أو الاستمرار في الوجود عن طريق إشباع الحاجات الإنسانية المختلفة: البيولوجية، الاجتماعية، السيكولوجية، الثقافية والسياسية ...، أي باختصار إنها عملية لإعادة التوازن للنسق الاجتماعي والثقافي،[32] حيث ينسج المهاجر في خياله مجموعة من الانتظارات والانجازات التي يأمل تحقيقها بعد الهجرة والعمل فتكبر الطموحات والآمال وتتضخم وبالتي تحفزه وتدفعه للعمل، فتبدأ الدوافع

والإنتظارات مادية ولكن الشاب ينتقل إلى التفكير في انتظارات أخرى مثل: تحقيق الذات والصعود الاجتماعي، ومن ثمة الحصول على مكانة ودور جديدين يخولان له الاعتراف والاندماج الاجتماعي.

وفي هذا الإطار نشير إلى أن المناطق الريفية والجبلية في الجزائر والتي لم تحظى بتنمية مستقرة ومستمرة، قد عرفت طيلة العشريات السابقة، هجرة ونزوحا قويين ومتواصلين للشباب، أو بالأحرى نزيفا شبابيا، نحو المدن وخاصة الكبرى منها الجزائر، عنابة ووهران، هذه المدن التي يرونها كمجال لتحويل أحلامهم إلى حقائق، ثم في مرحلة تحولت هذه الهجرة الداخلية إلى هجرة خارجية نظرا لتشبع هذه المدن من نواحي عدة منها الحجم السكاني، اليد العاملة، وبما أن الهجرة الشرعية كانت شبه مستحيلة في إطار الأوضاع التي تعيشها البلاد، اضطر الشباب إلى الالتجاء إلى الهجرة غير الشرعية.

فواقع الشباب البطال (المصنف درجة ثانية) في الجزائر يتميز بافتقادهم الوسائل الأساسية للحياة لذلك يجدون أنفسهم مدفوعين ومرغمين على النزوح والهجرة، بما أنهم يرون أن وضعهم المزري مرتبط بواقع محلي لا يشجع على التحسن وغير قابل لذلك في المستقبل القريب، لذلك فهم يبحثون على فرص عيش خارج الجزائر وهي بطبيعة الحال في الدول الأوروبية (القرب الجغرافي والحضاري)، وبالتالي فهم يبحثون عن هوية اجتماعية جديدة بما أن العلاقات الاجتماعية في مجتمعاتهم يمكن أن تكون معيقة لتحسن معاشهم، ففي الهجرة غير الشرعية بحث عن هوية جديدة تساعدهم على تحسين نمط عيشهم كخطوة أولى في طريق تحقيق الذات الاجتماعية.

ولقد نجح العديد من الشباب المهاجر في (الاندماج) في المجتمع المستقبل واكتساب نظرة أخرى للحياة سمحت لهم بإعادة بناء وتشكيل أنماط حياتية جديدة خاصة من حيث العمل، السكن والتعليم، فالهجرة غير الشرعية لهؤلاء الشباب ليس فقط ستحسن من نمط عيشهم اقتصاديا بل تجعلهم يحتلون موقعا اجتماعيا مغايرا للسياق الحالي في عائلاتهم وفي جماعاتهم المحلية، إن بعض الشباب يحرمون أنفسهم من عديد الأشياء ليساهموا بجزء من راتبهم في ميزانية الأسرة، أو باقتناء الهدايا وبعض الأثاث للمنزل وذلك قصد افتكاك مكانة و دورا داخل الأسرة ومن ثمة الاندماج الاجتماعي.

إذن يمكن القول من خلال ما تقدم أن الهجرة غير الشرعية هي واقع انثروبولوجي-تاريخي / سوسيو-اقتصادي متعارف عليه لدى الشباب البطال في المجتمع المحلي في مدينة عنابة، كما أنها إستراتيجية ممارسة ومتبعة منذ مرحلة الاستعمار تدعم في العقود والسنوات الأخيرة في مدينة عنابة.

خاتمة

إن الشاب المهاجر بطريقة غير شرعية مثلما اتضح لنا من خلال الدراسة، غير مجبر أو مكره كليا من طرف جهة ما، فهو في الغالب اختيار حر يتبع من خلاله إستراتيجية من أجل بلوغ أهداف شخصية يمكن أن تكون من طبيعة مختلفة ومتنوعة، فاختياراته تخضع إلى خصائصه الفردية، قدراته الذاتية ومركزه الاجتماعي، ومؤهلاته الثقافية والأهداف المرجوة والمتوقعة، وبالتالي تختلف الإستراتيجيات، فنجد شبابا يختار الهجرة عبر الزواج، والآخر عبر قوارب الموت ذلك أمام النكسات المتتالية التي يعيشها، أين ينسحب ويختار البطالة وحتى الاستقالة من ميادين الفعل الاجتماعي التقليدية ويؤسس مع زملائه حقول أخرى.

إن كثيرا من الشباب المهاجر بطرق غير شرعية في مدينة عنابة لا يبحثون عن أهداف كبرى وطموحات بل يبحثون عما يمكن أن يضمن لهم نوعا ما من الاستمرار وحفظ البقاء، لذلك تتقلص طموحاتهم واستراتيجياتهم، من الهجرة خارج الوطن التي يعتبرونها الحل الأجدى والتي يقبل عليها الشباب أكثر من غيرها من الحلول المتاحة، إلى الهجرة غير الشرعية، وعندما يفشل الشاب في هاتين الإستراتيجيتين يلجأ إلى البطالة أو بالأحرى الاستقالة التي تحميه من عديد الالتزامات الاقتصادية، الاجتماعية والأخلاقية، يبدو إذن أن فئة هامة من الشباب اتخذت استراتيجيات مخالفة إن لم نقل مضادة

لاستراتيجيات الدولة والمجتمع، حيث لم يستطيعا احتواء وإدماج هذه الفئة في منظوماتهما، رغم عديد الآليات والبرامج والمشاريع التي وضعتها الدولة والموجهة للشباب.

المراجع والهوامش

1 - عبد الله عبد الغني غانم، هجرة الأيدي العاملة: دراسة في الانثروبولوجيا الاجتماعية للبناء الاجتماعي لمجتمع العاملين بميناء الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 1976، ص15.

2 - أحمد عبد العزيز الأصفر وآخرون، مكافحة الهجرة غير المشروعة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المملكة العربية السعودية، 2010، ص-ص 5- 6.

3 - ساعد رشيد، واقع الهجرة غير الشرعية في الجزائر من منظور الأمن الإنساني، مذكرة ماجستير في العلوم السياسية تخصص دراسات مغربية(غير منشورة)، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2011-2012، المقدمة.

4 - أحمد عبد العزيز الأصفر، مرجع سابق، ص 6.

5 - محمد فتحي عيد،" التجارب الدولية في مكافحة الهجرة غير المشروعة"، مكافحة الهجرة غير الشرعية، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ،ط1، 2010، ص 156.

6 - عزت حمد الشيشيني." المعاهدات والصكوك والمواثيق الدولية في مجال مكافحة الهجرة غير الشرعية"، مكافحة الهجرة غير الشرعية ،الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، ط1، 2010، ص 155.

7 - walter F . Abbott, do we need status-specific migration theories, in sociology and social research. october 1977, vol 62 , No (1), p 86

8 - عبد الله عبد الغني غانم، المهاجرون -دراسة سوسيوانثروبولوجية - ، المكتب الجامعي الحديث، مصر- الاسكندرية، ط2، 2002، ص 33.

9 - walter F . Abbott, do we need status-specific migration theories, Op. cit, p 86

10 - Ibid. p 86

11 - ساعد رشيد، مرجع سابق، ص 18.

12 - خضر زكريا وآخرون، دراسات في المجتمع العربي المعاصر، ط2 ، دار الأهالي، دمشق، 1999 ص51.

13 - أحمد عبد العزيز الأصفر، مرجع سابق، ص 33.

14 - فضلنا اعتماد مفهوم الجنس عوض الزواج لأن غاية الشباب ليست تكوين وبناء المؤسسة الأسرية ولكن الهجرة خارج الوطن.

15 - ربط العلاقات مع الجزائريات المقيمات في أوروبا(وعلى وجه الخصوص فرنسا) أو حاملي الجنسية المزدوجة.

16 - مصطلح يطلق على الفتاة الجزائرية المقيمة في الخارج أو الفتاة من أصول جزائرية مقيمة بالخارج.

17 - أحمد عبد العزيز الأصفر، مرجع سابق، ص 34.

18 - نمط موسيقي شبابي ظهر في الغرب الجزائري وانتشر وطنيا، مغاربيا وعالميا.

19-Scheher(S), La vie quotidienne des jeunes chômeurs, PUF, coll. « Sociologie d'aujourd'hui », Paris 1999. Lazarsfeld (P, F), Jahoda (M), Zeisel (h), Les chômeurs de marienthal, traduit de l'allemand par Laroche (f), Minuit, Paris 1981. Marcel (B), Taib (J), Le chômage aujourd'hui, un phénomène pluriel, Nathan, Paris 1991.

20- Boutefnouchet Mustapha, Système Social et chargement social en Algérie, O.P.U, Alger, 1984, p 128

21 - ناصح عبد الرحمن، الشباب بين تغيير الواقع الاجتماعي والتفكير في الهجرة، مذكرة ماجستير (غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر2010،2-2011، ص 82.

22 - عياد أبلال، الهجرة السرية، مقاربة سوسيولوجية، منشورات سينرجي، كارولينا، 2002، ص 15.

23 - اعتبرنا المقهى مؤسسة غير رسمية -للتثقيف-، لا بمعنى أن تأثيرها ضعيف، وإنما بمعنى أنها أقرب إلى العلاقات الاجتماعية الحرة عكس علاقات الأسرة (المفروضة بيولوجيا).

24 -Bouamama, Said, De la galère à la citoyenneté : les jeunes, la cité, la société, Desclée debrower, Paris 1948, p 45.

25 - رابح طيبي، الهجرة غير الشرعية (الحرقة) في الجزائر من خلال الصحافة المكتوبة، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال(غير منشورة)، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 75.
26 - نفس المرجع، ص 93.
27 - ألفرد أدلر، الطبيعة البشرية، ترجمة عادل نجيب بشري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2005، ص 82.
28 - قيش حكيم، الاتجاهات نحو الهجرة غير الشرعية وعلاقتها بالتوافق النفسي الاجتماعي لدى الشباب، مذكرة ماجستير (غير منشورة)، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 80.
29 - ألفرد أدلر، مرجع سابق، ص 250.
30 - Venema Bernard, Les khroumirs, changements politiques et religieux dans la période 1850-1987, Amsterdam, VU University Press. 1990, p p.108-109.
31 - علي حوات، الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا عبر بلدان المغرب العربي، اتحاد المغرب العربي، منشورات الجامعة المغاربية، طرابلس، ليبيا، 2007، ص 156.
32 - أحمد ربايعية، دراسات في نظرية الهجرة ومشكلاتها الاجتماعية والثقافية، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1987، ص 4.